وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT
مركز حمد الجاسر الثقافي
Hamad Al jasser Cultural Center

الحج في أدب الرحلات عبدالوهاب عزام نموذجًا

التاريخ:2004/02/17

الحمد لله الذي فرض الحج إلى البيت الحرام، وشوّق القلوب إلى هذه البقاع المطهرة، والصلاة والسلام على من [: Yأكمل بسنّته هذه الشعيرة فاقتفى حجه كل راغب في الأجر والثواب. يقول الله الآية. فهذا]جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ... البيت الحرام هو أول بيت وُضع للناس، وقد شرع الله لعباده الحج إليه، وأمر خليله بتطهيره من الأدناس، وأمره بالأذان في الناس ليحجوا بيت الله؛ يقول تعالى : . هذا وقد اجتمعت كلمة المسلمين على]وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ [أنّ للحج حِكمًا وأسرارًا وفوائد، وقد انبرى عدد من الباحثين والمؤرخين والرحالة إلى ترجمة أجمل المعاني وأسماها عن الحج والأماكن المقدسة، وكتبوا كتبًا ومقالات وبحوثًا كان لها قصب السبق في بيان الحِكم والمعاني، ووصف مناسك الحج والإحرام، وعن البيت الحرام، ووصف جهود المملكة العربية السعودية في العناية بالمشاعر المقدسة، وفي استقبال ضيوف الرحمن، ووصف الطرق والمواصلات والخدمات وماء زمزم ومساكن الحجاج في منى وعرفات ومكة المكرمة في أجواء مفعمة بالإيمان وخدمات متميزة. والتراث العربي الإسلامي حافل بصور ونماذج وكتابات متنوعة عن الحج جدير بنا أن نبرزه ونعرّف به. ويقول أحد الشعراء في ذلك:

لله درّ ركائب سـارت بهم
رحلوا إلى البيت الحرام وقد شجا
نزلـوا بباب لا يخيـب نزيله تطوي القفار الشاسعات على الدُّجا
قلب المتيم فيهموا ما قد شجا

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وقلوبهم بين المخافة والرجا

لقد كانت مواكب الحجيج مهرجانًا في الكثير من البلاد الإسلامية إذا أطلّت أيام الحج المباركات، حيث تموج بالمواكب المشمِّرة إلى حج البيت وأداء الفريضة، فيسيرون على اسم الله وبركته وحج بين الله.

وهكذا فالحج شعائر من الأدب الرفيع وأنّ رحلة الحج المباركة من أفضل ما عرف ويمكن أن يعرف الإنسان من رحلات، كما أنّ رحلة الحج تمثّل حجر الزاوية في أدب الرحلات. وقد كان لإمارة الحج في القديم والحديث عطاؤها الأدبي، نذكر على سبيل المثال الشريف الرضي الذي كان لإمارته للحج عطاء ثرّ غزير، واشتهرت حجازياته في الأدب العربي شهرة واسعة، كما أنّ صاحب مرآة الحرمين، وهو من أمراء الحج، وهب الأدب الوصفي كتابًا قيّمًا، كما وضع المقريزي (845هـ) كتابه المشهور الذهب المسبوك في ذِكر من حج من الخلفاء والملوك إضافة إلى ما دوّنه عدد من الأدباء الرحالة في فترات زمنية تاريخية.

وفضلاً عن ذلك، فإنّ هذه الرحلات تمثّل عمقًا ثقافيًّا وبعدًا اجتماعيًّا ورؤية حضارية كان لها انعكاساتها في وصف ما يقع عليه نظر الرحالة أو ما كان يهتم به أو ما شدّ انتباهه.

ونستعرض رحلة الدكتور عبد الوهاب عزام(1) -رحمه الله- وهو يتحدث فيها عن مقامه في منى حيث يقول بأسلوب جزل أدبي متين ولغة صافية سليمة:

هذا ثاني أيام التشريق، ومنى غاصة بمضاربها، قد اجتمع إليها الحجيج من أرجاء الأرض، واختلط فيها وفود المسلمين من كل الأقطار. تجاورت القباب، واشتجرت الأطناب، وتمعجت السبل بينها تجور بالسائر، وتعدل بالسالك، إن لم يكن خبرها وعرف بالعلامات مسالكها، إلا مهيعًا بتوسط البقعة تُفضي إليه المسالك فيقصد فيه السابل على بيّنة.

زخرتْ منى بالحجيج، وازدحم الموسم بأهله. وقد أدَّينا بحمد الله المناسك، ولم يبق إلا رمي الجمار، وهي أمر لا يشغل نزّال منى إلا قليلاً. فهناك سعة للتزاور والتعارف، وهناك

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فسحة لتبادل الآراء والتشاور في خطوب المسلمين.

خرجت في رفاقة بعض الإخوان أبتغي زيارة بعض الأجلاّء من العلماء، ورغبت أن أرى من وجوه المسلمين وجهًا معروفًا في مجامع الحج منذ سنين لا يخلو منه موسم، ولا يجهله محفل. وقد رأيته في عرفات ضاربًا مخيمه على الجادة، فنـزلت إليه في نفر من رفقائي حجاج الجامعة، وأنسنا به حينًا. وبينا أنا بالمشعر الحرام من مزدلفة، رأيت خطيبًا واعظًا يتكلم على جماعة باللغة الأردية، فدلفت إليه فإذا هو ذلك الوجه المعروف غير المنكر، وأنا أرجو ألا يفوتني في منى لقاؤه، ومضربه في منى أرفع المضارب، يلوح للسائر عاليًا متميّزًا تخفق عليه رايته. فليس على من يبغي المسير إليه إلا أن يذهب إلى مسجد الخيف، ثم ينظر إلى سفح الجبل ليرى فسطاطًا كبيرًا قد احتلّ من السفح مستوى لا يتسع لغيره، فليس هناك فسطاط سواه. فإذا تأمّله أبصره، فعرف أنه منـزل أحد العلماء.

أخذت سمت المكان حتى قاربت المسجد فلقيني جماعة من حجاج الجامعة والأزهر، فصعدنا إلى الفسطاط في شرف يطلّ على الموسم كله، وينظر إلى مسجد الخيف من كثب. لبثنا قليلاً ثم هبطنا إلى فجوة بين الصخور تسمى غار المرسلات، فوقفنا وقفة قضينا بها حق الذكرى العظيمة، ثم سرنا مُصعدين في الجبل وهو جبل شاهق أدكن عظيم الصخور، كثير القَلَع. فما زلنا نصّعد حتى لاح رائعًا! فهذا مسجد الخيف وهو مسجد بري معطّل من الزينة وفراشه الحصباء: بناء كبير تحيطه جدران مديدة بيضاء، يتوسط صحنه الفسيح مصلى عليه قبة ومنارة، وفي جانبه القبلي سقيفة على ثلاثة عقود. وقد راقني منظره من سفح الجبل تتجلى فيه فطرة الإسلام وطبيعة البداوة، ثم يفيض في الحديث والوصف للمشاعر المقدسة قائلاً:

وهذا المحصَّب عن شمالنا حيث العقبات الثلاث التي ترمى فيها الجمرات. وإلى اليمين يمتدّ وادي منى بين سطرين من الجبال الشاهقة يساير فيه الطرفُ أسرابَ الخيام إلى أن يكلّ.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وهناك تبدو دار الملك عبد العزيز التي ينـزلها أيام الموسم.

وهنالك بناء أبيض يلوح بين الأشجار هو (السبيل): مورد عذب يستقي منه الحجاج، يزدحمون عليه النهار كله وطرفًا من الليل. وإنها لمبرة عظيمة. ويواصل حديثه قائلاً:

وأما الجبل الشامخ الذي يمتد على جانب الوادي الأيسر فهو ثبير.

وكم ردد التاريخ والشعر ذِكر ثبير!

ترافدت الذكرى وتوالت العِبر في هذه البقعة المقفرة التي تخصب بالجماعات كل عام من عهد الجاهلية، فكأني بالقبائل تلتقي تناشد الأشعار، وتتفاخر بالأحساب، ويضعون عنهم العداوة والحرب إلى حين، وقد تغلبهم الضغائن فيفاجأ بعضهم بعضًا غير مراعين حرمة الشهر والمكان، كما أغارت هوازن على خزاعة بالمحصّب من منى؛ فقال أحد بني عدوان:

غداة التقينا بالمحصب من منى فلاقى بنو العنقاء إحدى العظائم

وكأني بهم ينحرون ويذبحون ويضيفون ويطعمون، ويشرّقون بقايا اللحم على سفح الجبل.

وكأني بفتيان وشعراء مكة في الجاهلية والإسلام يقضون حق المكارم والفتوة، يضيفون ويطعمون ويشيدون بالمفاخر ويتناشدون الشعر ويتناقلون الأخبار، وينـزع بهم الشباب فيتغزلون ويرون في الموسم على جلاله وحرمته شملاً من الأحباء يجتمع، وشملاً يفترق، فيشيد الشعر بفرحة اللقاء ولوعة الفراق؛ فهذا عمر بن أبي ربيعة يقول:

نظرت إليها بالمحصب من منى
فقلت: أشمس أم مصابيح بيعة
بعيدة مهوى القُرط إما لنوفل ولي نظر لولا التحرج عارم
بدت لك خلف الستر أم أنت حالم
أبوها وإما عبد شمس وهاشم

ومن قبل تذكّر المجنون في هذا المكان ليلاه:

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما فهيج أطراب الفؤاد ومن يدري

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أطار بليلى طائرًا كان في صدري

ورحم الله جريرًا! كان أرشد من هؤلاء، لقيه الفرزدق فأنشده:

فإنك لاقٍ بالمنـازل من منى فخارًا فخبرني بمن أنت فاخر؟

فقال جرير: "لبيك اللهم لبيك".

نبهتني تلبية جرير فقلت: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إلخ. كم في هذه الخيام من قلوب وردت هذه المشاهد ورود القطا الظمأى! وكم من نفوس هجرت خفض العيش إلى مشقة الأسفار، وغربة الديار، لتنعم بالذِّكر والتوبة في هذه البقاع المقدسة، لو نفض كل قلب هنا آماله وآلامه لسامت هذه الحبال جبال من أحزان البشر وأمانيهم حملها أصحابها إلى سدّة الخالق العظيم يستغفرون ويتضرعون، ويسترحمون ويتذللون. سرائر لو اجتمعت في هذه الساعة لتمثل فيها تاريخ البشر. لو اجتمعت! لو تشاكى أصحابها وتناجى أربابها! لو تشاكى المسلمون في هذه البقعة وبث بعضهم لبعض خبايا قلبه، وتشاوروا فيما يحزبهم! أجل، هذه خيام مجتمعة، وجماعة مختلطة، وبينها تعارف وتزاور، ولكن أين هذا مما يريد الإسلام ونريد؟

طالت بي الوقفة وأصحابي على مقربة مني! قلت: هذا أمر له غير هذه الوقفة. ثم التفت فإذا أعرابي بجانبي تفتر شفتاه عن أسنان ناصعة وفي فمه عود. قلت: ما هذا؟ قال: بشام. قلت، الذي يقول فيه جرير:

أتذكر إذا تودّعنا سليمي بفرع بشامة؟ سُقى البشام

قلت: وما هذا؟ مشيرًا إلى شجرة صغيرة من الشجر الذي يسمى السنط في مصر. فقال: سَلَم. فتذكرت قول القائل:

ويومًا توافينا بوجه مقسم كأن ظبية تعطو إلى وارق السلم

وقول الحجاج: والله لأعصبنك عصب السلمة إلخ...

قلت: أتستطيع أن تأتينا بأعواد من البشام؟ قال: إنه على الريع الآخر، وأشار إلى أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً[الجبل يعني سفحه الآخر. فتذكرت الآية الكريمة: ، والريع المكان المرتفع. قلت لأصحابي: لو اتسع الوقت لأخذنا كثيرًا]تَعْبَثُونَ من اللغة عن هذا الأعرابي. فمن كان يظن أنّ هذه ألفاظ ميتة في المعاجم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

فليعلم أنها لا تزال حية في أفواه كثير من العرب.

وحان الرجوع فرجعنا إلى الخيام في منى.

وبعد: فهذه صورة أدبية ذات خصائص أسلوبية غنية المشاعر والصور يرسمها لنا في رحلته ومشاهداته ينتظمها نسق فكري واحد ووحدة موضوعية يوحي بها جلال المكان والساحات المقدسة والبقاع المطهرة، ويهتف بهم داعي الشوق والحب والحنين إلى مهوى أفئدة المؤمنين والصالحين، وكلما سعى الناس بين الصفا والمروة وكلما شربوا من ماء زمزم(2).

وهكذا يدخل المسلم في نسك الحج فيجد السلام والأمن زمانًا ومكانًا وإحرامًا ولا ينتهي من شعائره ومناسكه حتى يتذوق نعمة الإسلام والأمان فقهًا وأدبًا وممارسة وصدقًا. والمتأمل في فريضة الحج في أعماق الزمن يرى عجبًا ويزداد إيمانًا؛ فهي نموذج للترابط والصلات والتآخي بين المسلمين على الرغم من اختلاف الأقوام والأوطان.

لِيَشْهَدُوا[هذا قليل من كثير نذكره حين نقرأ قول الله تعالى: .

والله الموفق والمستعان.]مَنَافِعَ لَهُمْ

الهوامش:

* أمين عام دارة الملك عبد العزيز الأسبق.

(1) د. عبدالوهاب عزام 1312-1378هـ أسهم في إنشاء جامعة الملك سعود.

(2) مجلة الرسالة، 1357هـ، القاهرة.

بداية الصفحة - رد

جميع الحقوق محفوظة لمركز حمد الجاسر الثقافي

This file was downloaded from QuranicThought.com